بسم الله الرحمن الرحيم

أيامي في مصر

الحلقة "الرابعة"

أ.د. عبد العزيز بن أحمد بن عبدالله البداح

يوم الأربعاء الموافق: ١٨/٠٨/١٤٤٥هـ

أعود إليك أيها القارئ بعد انقطاعٍ دام أكثر من سنة، مضت فيه الأيام سريعًا وسارت حثيثًا.

إنّا لنفرحُ بالأيام نقطعها ❖❖❖ وكلُّ يومٍ مضى نقصٌ من الأجلِ

أعتذر عن الانقطاع بتشوّش الفكر وغياب حالة الصفاء التي تُمكنني من الكتابة والإقبال عليها، إذ النوع من هذه الكتابة التي تعتمد على إملاء الفكر وشحذ الذهن وإعمال العقل تحتاج إلى صفاءٍ يفتقده المرء كثيرًا؛ لتقلّب الحال أو انصراف النفس أو تغيّر المزاج، ولما رأيتُ من نفسي شيئًا من الصفاء بادرت ألمّ شتات معلوماتي وأجمع أقلامي وأحمل دواتي.

بادرْ إذا حاجةٌ في وقتها عَرَضَتْ ❖❖❖ فَللْحَوائجِ أوقاتٌ وساعاتُ

إنْ أمكنتْ فرصةٌ فانهضْ لها عَجِلًا ❖❖❖ ولا تُؤخرْ فللتأخيرِ آفاتُ

والأمر قبل ذلك وبعده فتحٌ من الله تعالى لعبده، ومن الأدعية التي سمعتها في مصر: "ربّنا يفتح عليك".

وكذلكَ الفتّاحُ منْ أسمائهِ

والفتحُ في أوصافهِ أمرانِ ❖❖❖ فتحٌ بحكمٍ وهو شرعُ إلهنا

والفتحُ بالأقدارِ فتحٌ ثانِ ❖❖❖ والربّ فتّاحٌ بذينِ كليهما

عدلًا وإحسانًا من الرحمنِ

وها أنا استكمل تدوين رحلة فاق حلوُها مرَّها، وزينُها شينَها، وصفاؤها كدرها، وذلك لأنّها كانت في صحبةٍ تطيبُ بهم الحياة، ويجملُ بهم المعاش، كما قال الشاعر في مثلهم:

الحُسْنُ يَرحَلُ كُلّما رحلوا ❖❖❖ معهمْ ويَنزلُ حيثما نزلوا

وكنت أشرتُ في الحلقة الماضية إلى موقفي مع الدكتور "محمد المسيّر" رحمه الله، وذكرتُ أنّ له موقفًا متعصبًا من الدعوة السلفية وأعلامها، على أنّ له شخصيةً قويةً فهو مثلًا يرفض المشاركة في أيّ برنامج تلفزيوني تقدّمه امرأة.

على أنّ ما يهمّ فيما مرّ بي مع الدكتور "محمد المُسيّر" أن درّسني مادة "الأخلاق والتصوف" في مرحلة "البكالوريوس" والكتاب المقرّر من تأليفه وعنوانه "الجمال والأخلاق" عَرَضَ فيه لقضايا التصوير والغناء ..

وفي الكتاب أجاز النحت والتماثيل، لقوله تعالى عن سليمان: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ...﴾ [سبإ: ١٣]. وشرع من قبلنا شرعٌ لنا.

وتأتي هذه الفتوى خرزةٌ في منظومةٍ تمثّل منهجًا في الفتاوى السيّالة يحملها المتطفّلون على العلم والمتقحّمون لحماه ممن يُطلقون الفتاوى الطيّارة، تنطلق من الاستجابة للواقع وترضخ لضغوطه وتعتمد على التلفيق الفقهي وتُستقى من شذوذات الآراء وتُبنى على وقائع تاريخية؛ وحامل هذا الاتجاه في العصر الحاضر أصالةً الدكتور يوسف القرضاوي و محمد الغزالي .

وبعض من يسير في هذا الاتجاه يُحسب على أهل العلم، وبعضهم ليس له علاقةٌ بالعلم وأهله إلا بالانتساب له.

وأذكر في هذا السياق أنّ عميد كلية أصول الدين في زمن دراستي فيها الدكتور "عبدالمعطي بيومي" ودرّسني مقرّر "الفلسفة الإسلامية" وهو عضوٌ في مجلس الشعب بالتعيين اعترض على مقترحٍ بمنع "الخمر" في "مجلس الشعب" بحجة أنه كان موجوداً في زمن الإمام أبي حنيفة!!

وحصلت ضجّةٌ في حينه حول ضبط مزرعة تذبح "الحمير" وتوزّع لحومها على المطاعم، وشارك منتسبون للعلم في لقاءات تلفزيونية حول ذلك مالَ بعضهم إلى القول بإباحة أكلها!!

وتكرّرت هذه الضجة بعدها لكنها أضافت إلى ذلك إباحة أكل لحم الكلاب!!

وأنقلك إلى حادثةٍ وقعت لي بعد سنوات تُجلّي لك هذا الاتجاه، ففي أثناء مناقشة رسالتي الماجستير في تحقيق "حاشية الروض المربع" جاء ذكر إعفاء اللحية فنقلتُ في الهامش قول المذهب في تحريم حلقها ووجوب إعفائها، فأوقفني المناقش وكان ملتحيًا! وقال: لماذا لم تنقل القول الآخر بسنيتها! وكيف تقول حرام؟ ومشرفك في الرسالة حليق، ونصف الحضور في القاعة حليق!!

وسأحدثك في موضعه عن "الجامعة الأمريكية المفتوحة" وتجربتي في الدراسة فيها.

وهذا الاتجاه في الفتوى موضوعٌ ثريٌ وحيويٌ ويستحق الدراسة بتتّبع أصوله وملامحه وآثاره.

وكنتُ حريصًا في تردّدي للدراسة في مصر على زيارة المكتبات والمراكز العلمية والبحثية.

ومن أوائل المراكز التي زرتها المركز الرئيسي لجماعة "أنصار السنة المحمدية" وترددّتُ عليه وقابلت خلال زياراتي الدكتور "جمال المراكبي" الرئيس العام للجماعة والشيخ "فتحي عثمان" وكيل الجماعة واشتريتُ مجلتها .

وأصدرتْ الجماعة في بادئ الأمر "مجلة الهدي النبوي" ثم تغير اسمها إلى "مجلة التوحيد"؛ وهي تتناول موضوعاتٍ عقديةً وفقهيةً وحديثيةً وتاريخيةً، وكتب فيها علماء كبار ك "محمد حامد الفقي" و "تقي الدين الهلالي" و "أحمد شاكر" و "محمد بهجت البيطار" و "عبدالرحمن الوكيل" وغيرهم.

وجلستُ مع الشيخ "فتحي عثمان" جلساتٍ عرفتُ من خلالها أنه يملك مخزونًا تاريخيًا واسعًا لأحوال الجماعة ورجالها وتاريخها وجهودها .

وكنت أتمنى في حينه أن لو أسعفني الوقت لأمدّد جلساتي معه وأدوّن ما يحفظه من تاريخ مهم قد لا يوجد عند غيره، خاصةً وأنّ الشيخ في غاية اللطافة والوداعة، وأسفتُ لما سمعتُ نبأ وفاته سنة (١٤٤٣) فرحمه الله رحمةً واسعة.

وطالعتُ مجلة "الهدي النبوي" و "التوحيد" فوجدتُها ثريةً بموضوعاتٍ في التوحيد والفرق والمذاهب الفكرية إضافة إلى الحديث والفقه وغيرها وكتبتُ عنها مقالًا بعنوان: "الدوريات الشرعية وخدمة العقيدة".

وأعود بك إلى قاعات الدراسة حين واجهت أوّل صدمة في الفصل الدراسي الأوّل إذ كان من المقررات التي أدرسها "الفلسفة اليونانية"، وستعجب كثيرًا عندما أقول لك أنّ أوّل سؤالٍ في الاختبار النهائي: "كيف تردّ على السلف في منعهم من الاشتغال بالفلسفة؟" وعلى الرغم من مرور ما يزيد على عشرين سنة على الواقعة إلا أنّي لم أنسَ تفاصيلها، وأذكر أني حينها اقتصرتُ في الجواب على إيراد أقوال السلف في ذم الفلسفة وعلم الكلام.

وفي الفصول الأخرى درستُ مقررات في الفلسفة الأوروبية والإسلامية، وفي كل فصلٍ دراسي درستُ في "التوحيد" كتاب "شرح المواقف" للجرجاني في تقرير العقيدة "الأشعرية".

وفي الفصل الدراسي الأول أخفقت في ثلاثة مقررات، وذكرتُ لك في الحلقة الماضية أنّ صديقي "مصطفى رضوان" لم يبلغني بذلك إلا بشكلٍ تدريجي كي لا يُضايقني، وعندما بلغني الخبر تكدّرت، إذ كيف أبدأ رحلتي العلمية بالرسوب؟ لكن من عجيب تدبير الله لخلقه وعبيده أنّ الدنيا لا تصفو لأحد؛ لتعليق النفوس بالله، وترويضها على البلاء، وقطع تعلّقها بالدنيا، وغسل أدرانها .

طُبعتْ على كدرٍ وأنتَ تريدها ❖❖❖ صفوًا منْ الأقذاءِ والأكْدارِ

وهذه الدنيا إنْ صفتْ تكدّرت، وإن حَلَتْ تمرّرت، وإن تزيّنت تشيّنت، كما قال القائل:

فما صَفَا لامْرِءٍ عيشٌ يُسرُّ به ❖❖❖ إلا سيتبعُ يومًا صَفْوهُ كَدَرُ

لكني أيقنت بعدُ أنّ العطاء بعد البلاء، إذ فُتحت لي أبوابٌ من العلم وشُرعت، ومنافذ من الخير وتيسّرت.

إذا الحادثاتُ بلغنَ النّهى ❖❖❖ وكادتْ لهنّ تذوب المُهجْ

وحلّ البلاءُ وقلّ العزاءُ ❖❖❖ فعندَ التناهي يكونُ الفرجْ

وكنتُ في هذا الموقف وغيره لا أُبدي تألّمي لأحد، ولا أُظهر توجّعي لمخلوق، خشية شماتة شامتٍ أو غشامة غشيم، بل يزداد اصراري وتتضاعف قوتي.

وتجلّدي للشامتينَ أُريهمُ ❖❖❖ أنّي لِرِيْبِ الدَهرِ لا أتَضعْضَعُ

لأنّ من تُظهر ألمك عنده إما مُحبٌ سيتوجع ويضيق، وإما مبغِضٌ سيشمت ويتندّر بك.

فإنْ تسألَنّي كيفَ أنتَ فإنني ❖❖❖ صبورٌ على رَيبِ الزمانِ صعيبُ

حريصٌ على أن لا يُرى بي كآبةٌ ❖❖❖ فيشمتُ عادٍ أو يُساءُ حبيبُ

وكان من دروس الحياة التي تعلّمتها ألا تُفضِ شكواك ولا تبد ألمك إلا عند صديقٍ مخلصٍ يغتمّ لغمّك ويتألّم لألمك، فلا أقسى على النفس أن تبثّ شكواها عند شامت، أو تبدي ألمها لدنيء.

ولئن تتفتتُ كبد الحرّ كمدًا، أو يحترق جوفه ألمًا خيرٌ له من أن يركن إلى صديقٍ ليس بصدوق، أو صاحبٍ لا يعرف معنى الصحبة.

ويلفت نظرك في "القاهرة" مما له علاقة بجامعة الأزهر مبنى سكني كبير مكتوبٌ عليه "مدينة البعوث الإسلامية" وهو سكنٌ لطلاب المنح الدارسين في الجامعة من مختلف الجنسيات، وبعض هؤلاء اندمجوا في المجتمع المصري ورأيت بعضهم يتحدث اللهجة المصرية.

وخرجتُ مع الأستاذ "محمود حفني" مدير "شؤون الطلاب" في الكلية للإفطار في مطعم خلف جامعة الأزهر، وحدّثني عن هذا الحي الذي يُسمى "الباطنية" وأنه في السابق كان مركزًا لبيع المخدرات وترويجها بشكل علني، وأنّ فيلمًا سينمائيًا يحمل اسمه، حكى تلك الفترة وتاريخها.

والشاهد من هذا أنّ السينما مؤثرةٌ في المجتمع المصري وحاضرةٌ فيه من خلال مساراتٍ متعددةٍ، وسأفصّل لك ذلك عندما اقترحتُ على رئيس قسم الأديان والمذاهب أن يكون موضوعي للدكتوراه "الدراما العربية.. دراسة عقدية".

وحرصتُ من زياراتي الأولى للقاهرة وما بعدها على زيارة مكتبة "مدبولي" وهي من أشهر المكتبات التجارية في القاهرة، وتُعنى بالكتب التاريخية والسياسية والاقتصادية والفكرية وغيرها. وهي تفتح على ميدان طلعت حرب أشهر الميادين في القاهرة.

وتتميز القاهرة خاصةً في الليل بمتعةٍ عجيبةٍ في السير فيها والمرور على محلاتها والمشي في طرقاتها، وربما مشى المرء فيها طويلًا من غير أن يشعر بتعبٍ وإجهاد.

وأثناء تجوّلي في وسط القاهرة لاحظت من يقف أمام دور "السينما" يدعو الناس إلى الدخول فيها بمبلغ عشرة جنيهات!! عرفتَ حينها أنّ الزمن تجاوز هذه الأماكن التي صارت كبضاعةٍ تُعرض في سوق "من يزيد" ولا يجد من يشتريها، على أنّ هذا كان قبل ظهور وسائل الاتصال والتواصل الحديثة التي استعاض بها الناس عن زيارة هذه الأماكن.

ومن زار القاهرة علم أنها من موارد الكتاب العربي في العالم بكثرة مكتباتها ومطابعها، ترى هذا واضحًا في مكتبات العَتَبَة، وكوبري أبو الريش، ودرب الأتراك عدا المكتبات المتفرقة هنا وهناك.

أما مكتبات العَتَبَة فسأحدثك عنها لاحقًا لما وجدتُ في إحداها كتابًا ضنّ أحدهم به عليّ.

وترددت على مكتبات "كوبري أبو الريش" ويملكُ مكتبةً فيها المحدّث "أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول" وقابلته وجلستُ معه وأجازني بمرويّاته.

وتستمتع بالتسوّق في مكتبات "درب الأتراك" إذ هي أزقةٌ ضيقةٌ تزدحم بالمتسوقين وتكتظ بعربات الباعة وتعلو فيها أصواتهم.

وجاورتُ في السكن طلابًا سوريين من الصوفية لأكثر من فصلٍ دراسي وجَهدتُ في الإحسان إليهم والتودّد إليهم لعلّ الله أن يُصلحهم .

ومن طريف ما جرى معهم أنهم سمعوني أتناقش مع دكتور الفقه "كمال عناني" حول ما يُردّده الصوفية في ابتهالاتهم "مدد مدد يا رسول الله"، فدعوني مرةً لمجلسهم وألقى أحدهم ابتهالًا قال فيه:

"وإنْ أصابك ضيم نادي يا رفاعي، وإنْ أصابك ضيم نادي يا دسوقي.." فأنكرتُ ذلك عليهم، فقال أحدهم: "تِكْرمْ شيخي ما قلنا مدد يا رسول الله"!!

فأخذت أكبرهم جانبًا وحدثته عن توحيد الألوهية واستحقاق الله للعبادة، فكان فاغرًا لا يدري ما أقول!! وكأنه لأوّل مرةٍ يسمعه. فأدركت أنّ هؤلاء تشبّعوا بعقيدة باطلةٍ تمكّنتْ منهم، وإذا كان بعضهم يسمع مني ويتلقى عني إلا أنّ بعضهم أرى الكراهية في وجهه عند رؤيتي فضلًا عن أن يستمع لحديثي.

وعلمتُ في تعاملي معهم أنّ التعامل الطيّب والخلق الحسن يُؤثر في النفوس ولو بعد حين، ومن ذلك أنّ بعضهم طلبوا مني "مجموع فتاوى ابن تيمية" .

وما دام أنّ الحديث جاء عن الصوفية فدعني أحدثك عن بعض ما رأيت من القوم من أحوالٍ ومقامات.

كنت أرى بعضهم في آخر مجلسنا ليلًا يقوم ويصلي ركعاتٍ ينقرها نقرًا هي صلوات ذلك اليوم.

وجلسوا مجلسًا قبل المغرب وانتهى منتصف الليل ولم يقم أحد منهم لأداء العشائين، والعجب أنّه مجلس ذكر!!

وحدثوني أنّ صلاة التروايح عندهم في سوريا تقتصر على آيةٍ واحدةٍ في كل ركعة، كأنْ يقرأ سورة "الرحمن" في كل ركعةٍ آيةٌ منها، حتى قيل للإمام لما قرأ (مدهامتان) لماذا لا تقسمها فتجعل في كلّ ركعةٍ مدهامّة؟!!

وكانوا يعبّرون عن استنكارهم وتذمّرهم من طول صلاة التراويح في الحرم المكي والمدني!!

وتعرّفتُ على ضابط شرطةٍ متقاعدٍ يشتغل بالدعوة إلى التوحيد، وأخبرني أنه كان صوفيًا في أوّل أمره، فوقع في يده كتاب الشيخ "الألباني" "تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد" فكان سببًا لهدايته إلى التوحيد والسنة، وذكرَ لي طرفًا من أخبار الصوفية التي رآها وعايشها بنفسه من تحلّل من الدين بترك الفرائض وارتكاب المحرمات، ولما كان يحكي تلك الأخبار ترائى أمامي كلام ابن الجوزي وابن القيم في ذكر أخبار الصوفية وما اشتملت عليه من انحرافات عقدية وأخلاقية.

وصادف أن مررتُ بجامع "الحسين" في الاحتفال بمولده، ورأيتُ تجمعاتٍ صوفيةً حول المسجد وتحيط به، كلّ طريقةٍ لها سرادقٌ خاصٌ بها، يجتمع فيه الرجال والنساء ويتعاطون فيها الدخان والشيشة، مع تضييع الصلوات والمجاهرة بتركها.

ودرّسني الدكتور "أحمد طه ريّان" مقرر "فقه الأسرة" في مرحلة المنهجية في ماجستير الفقه في "الجامعة الأمريكية المفتوحة"، وهو يتحدث عن أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يحضر دروسه يقظةً في الجامع الأزهر!!

وفي شهر ربيع الأول من كلّ سنة تُقام تجمعاتٌ في بعض البيوت لإحياء الاحتفال بالمولد النبوي، يسمونها "الحضرة" .

ودعاني أحد "أصدقائي" لحضور مناسبةٍ في بيت "خاله" يُستضاف فيها الدكتور "محمد فؤاد شاكر" تشتمل على أناشيدَ مصحوبةٍ بضرب الدفوف تتضمن: "مدد يا رسول الله" "مدد يا حسين"، وفي آخرها يُردّد الحاضرون نشيد "طلع البدر علينا.." وهم وقوف، وبعضهم يعتقد بحضور النبي صلى الله عليه وسلم هذه المجالس.

والدكتور "محمد فؤاد شاكر" نَشِطٌ في الدعوة إلى التصوّف ونشره وتقرير عقائده بين الناس.

والصوفية في "مصر" كغيرها من الاتجاهات العقدية متشابكةٌ متداخلةٌ في مظاهرها ودوافعها، ومن أراد دراستها دراسةً استقرائيةً تحليليةً فسيصل إلى نتائج مفاجئةٍ وصادمة، فسيجد مثلا أنّ دافع الاسترزاق والتكسّب حاضرٌ فيها، وسيجد دافع التدين والرغبة فيه موجودٌ أحيانًا، وسيرى جانب التوظيف السياسي يشكّل عاملًا قويًا، وسيلحظ أنّ جانب المحافظة على الهويّة مقصود باعتبار أنّ التصوف هويّة "مصر" عند المنتمين لهذا الاتجاه، وعمومًا وقفت على شواهد على هذه العُجالة التحليلية قد لا يكون من المناسب الاستطراد في إيرادها؛ لأنّي لستُ بصدد كتابة بحثٍ عقديٍ حول ذلك.

ولكني لا زلت آسف على خلو عالمنا العربي من مراكز أبحاثٍ ذات فاعليةٍ ومنهجٍ بحثيٍ متميزٍ تستقريء الظواهر وتقدّم دراساتٍ عميقة حولها.

ورأيتُ أنّ الصوفية وعقائدها أصلٌ في المجتمع المصري وإنْ ضعفت في الفترة الأخيرة لأسبابٍ ذكرتُ بعضًا منها في الحلقات الماضية، منها الاتجاه السلفي المعاصر في مصر الذي مثّله شخصياتٌ

ك "محمد حامد الفقي" والمتأثرين بدعوته، وفي جماعاتٍ كجماعة "أنصار السنة المحمدية"، وفي التواصل بين مصر ودول الخليج العربي بالسفر والإقامة فيه للحج والعمرة والعمل، مع استحضار تأثير الكتاب السلفي ووسائل الاعلام والاتصال والتواصل الحديثة.

وما دام أنّ الحديث عن الصوفية في مصر فلا بدّ أن أقرن معه الحديث عن التشيع للعلاقة بينهما.

فقد لفت نظري في الزيارات الأولى للقاهرة كُتب المُتشيّع: "صالح الورداني" في التهجّم على الدعوة السلفية وأعلامها، ككتابيه: "فقهاء النفط" و "فتاوى ابن باز"، ومثله المُتشيّع: "أحمد راسم النفيس" في كتابيه: "نقض الوهابية" و "مصر وآل سعود.. الحب المستحيل". وأردتُ حينها أن أتّتبع هذا الاتجاه -الذي كنت أميل منذ ظهوره إلى أنه اتجاهٌ يقف خلفه مؤسساتٌ ودول - فطالعتُ كتبهما ومقابلاتهما فازددت قناعةً إلى أنهما يُمثّلان اتجاهًا مسنودًا وعملًا مقصودًا أرادت إيران نشر التشيع في "مصر" من خلاله.

وظهر في تلك الفترة المُتشيّع "حسن شحاته" الذي يُمثّل خطّ الدعوة الشعبية الموجهة لعموم الناس.

وسمعتُ أنّ "الأمن" في عهد الرئيس "حسني مبارك" متيقظٌ للنشاط الشيعي ويراقبه ويوقف المتورطين فيه فكان محاصرًا، وبعد ذلك نَشِطَ الاتجاه الشيعي وأصبح أهله يجهرون بعقائدهم وميولهم. فكان في مقالات ومقابلات "فهمي هويدي" ميولٌ واضحٌ نحو "إيران" بدفاعه عنها وثنائه على مشروعها الثوري واشادته برموزها الدينية.

ونظرًا لما صدر عن "علي جمعة" من فتوى تجيز التعبد بالمذهب الشيعي وفتاوى أخرى تمهّد لنشر التشيع اتهمه بعضهم بأنه شيعي!!

وتمددَّ التشيّع بعدها ليصل إلى عددٍ من الممثلين المصريين الذين يُعلنون حضور المناسبات الشيعية والاحتفال بها في العراق!!

ولو أنّ باحثًا انبرى لرصد هذا الاتجاه وفضح نشاطه ودراسة دوافعه وخلفياته فسيجد مادةً ثريةً .

وأنا أدوّن ما يتعلق بموضوع التشيع سَنَحَ لي "جوهر الصقلي" وهو من كبار قادة الدولة العبيدية - التي تسمى زورًا بالدولة الفاطمية - الذي مررتُ بشارعه خلف "الجامع الأزهر" وهو الذي أنشأ "الجامع الأزهر" سنة "٣٥٩" لبثِّ التشيع في مصر وتثبيته لكن لم يُكتب له ذلك.

وأعود بك إلى ذكر الدكتور "كمال عناني" أستاذ الفقه الشافعي في كلية الشريعة بالأزهر؛ لأنها تحكي قصة النبوغ والتفوّق، والإصرار والنجاح، ومجاهدة البلاء، والصبر على مرّ القضاء، ومعانٍ عظيمةٍ أخرى تظهر بالتأمل والنظر.

تعرّفتُ على الدكتور "عناني" وهو كفيف البصر، يسكن حي السيدة "عائشة" في القاهرة، وهو حيٌّ شعبيٌّ قديم، وزارني في مسكني، ورأيتُ فيه -رحمه الله- دماثة الخلق، وطهارة القلب، وعفّة اللسان واليد.

والدكتور "كمال" من أهل القرآن، إذ يحفظه كالفاتحة كما ذكر عن نفسه، لكثرة تلاوته ومراجعته.

وحدّثني أنه يختم القرآن في رمضان في التراويح كلّ ثلاث ليال، يبدأ بعد العشاء إلى قرب طلوع الفجر، وأخبار المتهجدين في إيثار القيام ومغالبة النفس والشيطان عجيبة، لكنّ الخوف من الله والطمع في رحمته يحمل على ذلك.

وكيفَ تنامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ

ولمْ تدرِ في أيّ المجالسِ تنزلُ

وإذا رأيتُ وجههُ يضيء نورًا من أثر الصلاة والقرآن، تذكّرتُ قول الحسن البصري: "خلوا بالله فألبسهم نورًا من نوره".

وكان الدكتور "كمال" يحضر إلى الكلية بصحبة أحد طلابه بدرّاجةٍ نارية يُردفه عليها، وهذا الموقف رسمتهُ أمامي بمرسم النظر والتحليل، فوجدته يحملُ معاني عظيمةٍ من الصبر والرضا، والقناعة والكفاف، والتواضع والتطامن، والتربية والتزكية.

والدكتور "كمال" مثالٌ حيٌ مع أمثلةٍ أخرى مرّت بي رأيتُ فيها قيم التدّين والتواضع، والإصرار والنجاح، والرضا والكفاف، ورأيتُ فيها معاني لطف الله بعباده بتوفيق من شاء منهم إلى طاعته والقيام بعبادته.

وحدّثني مرةً أنه متابعٌ لإذاعة القرآن الكريم التي تُبثّ من السعودية؛ خاصةً برنامج "نورٌ على الدرب" و خطبة الشيخ "عبدالعزيز آل الشيخ"، وقال لي مرّةً أنه يلمسُ من صوت الشيخ "صالح اللحيدان" الهيبة والحزم!

وتَعرضُ ذاكرتي لمثلٍ آخر، وهو الدكتور "زكي محمد عثمان" رئيس قسم الثقافة الإسلامية بكلية الدعوة بالأزهر، كفيفٌ مشلولٌ، حاصل على شهادتين في "البكالوريوس" في الدعوة والتفسير، وحاصل على الماجستير والدكتوراه، وهو يجيد اللغة "الإنجليزية"، وسيرته من صغره صبرٌ على المرض، وتجلّدٌ على البلاء، وعزيمةٌ على النجاح، وإصرارٌ على التفوّق، ورضىً بالقليل، وقناعةٌ بما يكفي.

لقد كان يكتب مستقبله على الأرض بجسده النحيل وقدميه المُعطلتين اللتين يجرّهما جرًا لما كان يمشي زحفًا إلى المدرسة في فترةٍ من حياته.

عرفتُ من سير هؤلاء النماذج أنّ الإعاقة إعاقة القلوب والعقول، وأنّ الشلل شلل الهمم والعزائم، وأنّ المرض مرض الخور والعجز.

ولمْ أرَ في عيوب الناسِ عيبًا ❖❖❖ كعجزِ القادرينَ على التّمامِ

عرفتُ من سير هؤلاء النماذج أنّ قصة النجاح وسيرة النبوغ تُكتب بمرّ القضاء وشديد البلاء.

ومنْ يتهيّب صعودَ الجبالِ ❖❖❖ يعشْ أبدَ الدهرِ بينَ الحُفرْ

عرفتُ من سير هؤلاء النماذج أنّ الرب سبحانه يمنع ليعطي، ويبتلي ليمنح، وعطاياه في سحائبَ عظيمةٍ فوق رأس المرء تُمطر إحسانًا وجودًا إذا صبر ورضي.

إذا اشتملتْ على الناسِ الخطوبُ ❖❖❖ وضاقَ لما به الصدر الرحيبُ

أتاكَ على قُنوطٍ منكَ غوثٌ ❖❖❖ يمنُّ به اللطيفُ المستجيبُ

عرفتُ من سير هؤلاء النماذج أنّ عبادة الصبر عاقبتها العطاء، ومقام الرضى عن الله رضى الربّ عن العبد.

عرفتُ من سير هؤلاء النماذج أنّ قانون السماء غالب، ولطف الله سابق، وعطاء الله لا حدود له.

لِلهِ في كلّ ما يجري به القدرُ ❖❖❖ لُطفٌ تحارُ به الأفهامُ والفِكَرُ

عرفتُ من سير هؤلاء النماذج أنّ الأرزاق مكتوبةٌ لا يدفعها العجز، ولا يجلبها الحرص والحيلة.

فالرّزقُ عن قَدَرٍ لا العَجْزُ يَنْقُصُهُ ❖❖❖ ولا يزيدكَ فيهِ حَوْلُ مُحْتالِ

عرفتُ من سير هؤلاء النماذج أنّ الغنى في الاستغناء بالله، وسخاء النفس، وشهود النعمة، وأنّ الفقر عَوَزُ النفوس، وغياب الرضا، والتّطلّع لما في أيدي الخلق.

والفقرُ في النّفسِ لا في المالِ تعرفهُ ❖❖❖ ومِثْلُ ذاك الغنى في النّفسَ لا المالِ

عرفتُ من سير هؤلاء النماذج أنّ العبادة لا ترجع إلى قوة البدن وكمال الأعضاء، لكن هي محبة الله لعبده وتوفيقه له.

وإذا حلّتْ الهدايةُ قلبًا ❖❖❖ نشطتْ في العبادةِ الأعضاءُ

ولا تظنّنّ أنّ نماذج النجاح التي رأيتُها محصورةً في هذا أو ذاك، بل لا أكون مبالغًا إذا قلتُ لك إنها تتكرر عليّ كثيرًا في طلاب فقراء بعضهم لا يملك من الكساء إلا ما يلبسه، ومن الطعام إلا ما يقيم صُلبه، وهم متفوّقون ناجحون .

بقدرِ الكدِّ تُكتسبُ المعالي ❖❖❖ ومنْ طلبَ العُلا سَهَرَ الليالي

ومنْ رامَ العُلا من غَيرِ كَدٍّ ❖❖❖ أضاعَ العمرَ في طلبِ المُحالِ

وفي القاهرة ترى طرائف وغرائب في شخصياتٍ ومقالاتٍ ومواقفَ تشدّ الناظر لها لأوّل مرة، في حين أنّ الناس لا يعيرونها اهتمامًا؛ لأنهم متعوّدون عليها.

ومن طرائف ما جرى لي أنّي وقفت عند إشارةٍ ضوئيةٍ بصحبة صديقي "مصطفى رضوان" فوقف عند نافذة السيارة رجلُ يبيع كتابًا ويشير إلى الكتاب ثم يشير إلى نفسه، فلما أبصرتُ رأيت عنوان الكتاب:

"اللص التائب" ويحمل غلافه صورة حامله!! وبعد عشر سنوات مررت بالإشارة نفسها فرأيتُ اللصّ التائب ما زال يعرض كتاب سيرة حياته!!

وفي أوّل مرّة مررتُ بنفقٍ للمشاة يربط بين مسجد الحسين والجامع الأزهر رأيتُ رجلًا قاعدًا يتلو القرآن.

وصلّى صاحبي في مسجدٍ عصر يومٍ فجاءني مندهشًا لأنّ إمام المسجد كان يقرّر إيمان أبي لهب!!

ولما حدّثتكَ في أوّل الحلقة عن الصوفية أذكر أني صليتُ الجمعة في مسجدٍ كبيرٍ في القاهرة، وخطب بنا "الحبيب الجفري"، وعلمتُ أنّ له نشاطًا كبيرًا وواسعًا في إلقاء المحاضرات وعقد اللقاءات خاصةً مع الأثرياء حتى مُنع من دخول مصر بعد ذلك.

ووافقتْ رحلتي الثانية أو الثالثة للقاهرة بداية العام "٢٠٠٠م" وثار قبلها كلامٌ عن احتمال وقوع خللٍ في أنظمة الكمبيوتر تترتّب عليه كوارثُ وخسائرُ مادية، ولاحظتٌ حينها أنّ الركّاب في الطائرة قليل!!

وتعرّفت في أوّل رحلتي على الدكتور "محمد طلعت أبو صير" -رحمه الله -، إذ اختبرني في اختبار القبول للماجستير وهو اختبارٌ في القرآن الكريم، وزارني وزرته، وناقشني في رسالة الماجستير، ولمستُ فيه كمال العقل وتمام الإدراك ووفور الحكمة.

ولا خيرَ في حُسنِ الجسومِ وطولها ❖❖❖ إذا لمْ يَزِنْ حسنَ الجُسومِ عقولُ

ولعلّ من روافد حكمة الدكتور "محمد" وموارد وفور عقله، طول تجربته؛ فقد درّس في أكثر من جامعة وعاش في أكثر من بلد، وكان حريصًا على إقامة علاقات مع طلابه وجيرانه وزملائه.

ألمْ ترَ أنّ العقلَ زينٌ لأهلهِ ❖❖❖ ولكنّ تمامَ العقلِ طولُ التجاربِ

ومن النّعم ملاقاة العاقل ولو كان مُبغضًا؛ لأنّ عقله يحجزه عن الغوائل، ومن البليّة مؤاخاة الأحمق ولو كان محبًا؛ لأنك لا تأمن بوائقه.

عداوةُ العاقلِ خيرٌ لِمنْ ❖❖❖ عاداهُ من ودّ امرئٍ جاهلِ

بوائقُ الجاهلِ مبثوثةٌ ❖❖❖ وليسَ تخشاها من العاقلِ

ومن أجلى صور ذلك عنده التحوّط والتحرّز في الكلام والمواقف مع الودّ واللّطافة، والسياسة والمداراة، والجمع بين هذين الأمرين صعبٌ وعزيز.

ولن أنسَ قبضه ليدي ونحن نسير سويًا في تصرّف يفيض باللطف والودّ والوداعة، فرحمه الله وجزاه عنّي خير الجزاء.

وتُذكر عنه مواقف في التحوّط والتحرز مع زملائه في العمل، تُذكّر بقول القائل:

أعْدى عدوّك منْ وثِقتَ به ❖❖❖ فحاذرِ الناسَ واصحبهمْ على دَخَلِ

فإنما رجلُ الدنيا وواحدُها ❖❖❖ من لا يُعوّلُ في الدنيا على رجلِ

وذُكر أنّ أحد زملائه أراد منه أن يوقّع ورقةً على عَجَلٍ بُغية توريطه بها وكان حينها رئيس قسم الدعوة في الكلية، فقال له: "إنّ يدي التي أوقّع بها نسيتها في البيت".

ومن الأمثال المصرية الشعبية الرائجة: "حَرِّصْ ولا تُخوّن".

وكنتُ أتذكّرُ قول القائل إذا رأيتُ طريقته في التعامل مع الناس في تغافله وإعراضه عما لا يريد سماعه أو ما لا يُعجبه:

ليسَ الغبيُّ بسيدٍ في قومهِ ❖❖❖ لكنّ سيّدَ قومهِ المُتغابي

ومما يتّسم به الدكتور "محمد"، أنّه لا يُفشي سرّه ولا سرّ غيره لأحد، فلو سألتَه بعد أن تبوح بسرّك إليه، قال: ما سمعتُ شيئًا.

فإن قلتَ: وما الجديد في ذلك؟ قلتُ لك: إنّ حفظ السرّ في الناس قليل، وما يفعله إلا كريمٌ نبيل.

لا يكتمُ السرّ إلا منْ له شرفُ ❖❖❖ والسرُّ عند كِرامِ الناسِ مكتومُ

وحفظ السرّ علامة على استكمال الأمانة ورجحان العقل والترقّي في درجات المروءة، ومن عُدِمَ هذا فلا يُصاحب ولا يؤتمن.

إذا المرءُ لمْ يحفظْ ثلاثًا ❖❖❖ فبعهُ ولو بكفٍّ من رمادِ

وفاءً للصديقِ وبَذْلَ مالٍ ❖❖❖ وكتمانُ السرائرِ في الفؤادِ

ومن العقل والرشد ألا يبوحَ المرء بسرّه لأحد، فإنه يملكه ما دام في صدره، فإن أفشاه خرج من ملكه، وقد يكون عند من لا أمانة له أو لا رشد عنده، أو حظه من المروءة قليل.

إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسه ❖❖❖ فصدرُ الذي يُستودعُ السرَّ أضيقُ

وأكمل الناس نُبلًا، وأجمعهم مروءة، من حفظ سرّ صاحبه في حال الغضب والفراق.

ولستُ ببادي صاحبي بقطيعةٍ ❖❖❖ ولا أنا مبدي سِرّهُ حينَ أغضبُ

وأذكر أنه حدّثني عما يعانيه من لا ينتمي لجماعة "الإخوان" في الجامعة من تجاهلٍ وإساءةٍ بناءً على القاعدة الحزبية التي ينطلقون منها في التعامل مع الأشخاص والمواقف.

وأثنى على الرئيس "السادات" ورأى أنه أحسن من حَكَمَ "مصر" منذ ثورة "يوليو" وكان يقول: "أحسن من الذي قبله وبعده".

وحدّثني أحد أصدقائي أنه سأله مرّة: هل تخاف من الموت؟ فقال: لا يخافُ من يَقدمُ على كريم.

اللهُ يُكرمُ من أطاعَ وإنني ❖❖❖ لأرى الكريمَ على العصاةِ يجودُ

وزرتُ في تلك الرحلة الدكتور "رفعت فوزي عبدالمطلب" في مكتبته، وهو أستاذ الشريعة والحديث النبوي في كلية "دار العلوم" بجامعة القاهرة، وله دروسٌ ومؤلفات، ويظهر عليه الوقار والحشمة، وقد أجازني بمروياته.

ومما سمعته أنّ إنشاء كلية "دار العلوم" لمزاحمة جامعة "الأزهر"، وسواءً صحّ ذلك أو لا، فأنّى لكليةٍ أن تُزاحم جامعةً تتمدد فروعها ومعاهدها في "مصر" كلها.

وأنا أكتب هذه الحلقة رأيتُ أنّ أكثر من عرفتُ من المشايخ والأصدقاء في "القاهرة" رحلوا عن دنيانا.

حكمُ المنيّةِ في البريّةِ جارِ ❖❖❖ ما هذه الدنيا بدارِ قرارِ

بينا يُرى الإنسانُ فيها مُخْبرًا ❖❖❖ حتى يُرى خبرًا من الأخبارِ

وهذه سَنَنُ الحياة، وطبيعة الدنيا، وسنة الله في الخلق، لا يبقى أحدٌ، ولا يُخلّد مخلوقٌ، ولا يدوم بشر.

لا يدومُ البقاءُ للخلقِ ❖❖❖ لكنَّ دوامَ البقاءِ للخلّاقِ

ورحيل الأصدقاء يُخلّف وجعًا في القلوب ويورثُ ألمًا في النفوس، مع إحساسٍ بالوَحْدَة وشعورٍ بالوحشة.

وكلُّ مصيباتُ الزمانِ وجدتُها ❖❖❖ سوى فرقةِ الأحبابِ هيّنةُ الخَطْبِ

ومضت تلك الأيام كطيفٍ جميل ورؤيا حسنةٍ لم يُبقِ الزمان سوى ذكراها وطوى تفاصيلها.

ويفنى الجميعُ كحلْمٍ بديعٍ ❖❖❖ تألّقَ في مُهجةٍ واندثرْ

ويُسرّي عن المرء، ويُسلّي الإنسان أنّ ذكراهم باقيةٌ بجميل صنعهم، وأياديهم شاهدةٌ على طيب أثرهم.

ما ماتَ قومٌ إذا أبقوا لنا أدبًا ❖❖❖ وعِلْمَ دينٍ ولا بانوا ولا ذهبوا

ويهوّن على المرء ما يرجوه لهؤلاء من حسن العاقبة في الآخرة؛ لصلاحهم وحسنِ حالهم في الدنيا.

وما الموتُ إلا رحلةٌ غيرَ أنّها ❖❖❖ من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

والمهمّ أن يكون حبل المودّة ممدودًا بعد الفراق، ببقاء الذكرى، والثناء الحسن، والدعاء الصادق.

إنّي على العهدِ لمْ أنقضْ مودَّتَهمْ ❖❖❖ يا ليتَ شعري لطولِ البَيْنِ ما فعلوا

وفي وداع هذه الحلقة تذكّرتُ ما أجدُه من ألمٍ وأحسُّ به من وجعٍ عند توديع أصدقائي حين رجوعي من كلّ سَفْرة، إذ كان توديعهم مقرونًا بمودةٍ وعطف ممزوجًا بعاطفةٍ ولطف.

ومُدّتْ أكفٌّ للوداعِ تصافحتْ

وكادتْ عيونٌ للفراقِ تسيلُ

ولم يكن التوديع بالأيدي والأبدان، ولكنه بالقلوب والعيون.

أَيا عَجَبًا مَمّنْ يُدّعُ إِلْفهُ ❖❖❖ يمُدُّ يدًا نحو الفراقُ فيُسرعُ

هَمَمتُ بتوديعِ الصديقِ فلمْ أُطِقْ ❖❖❖ فودّعتهُ بالقلبِ والعينُ تدمعُ

وإنْ رحلتْ الأبدان وتباعدت الديار لكن يبقى وِصالُ النفوس ولقاء الأرواح يجمعها التآخي ويؤلّفها التعارف.

أقولُ له حينَ ودّعتهُ ❖❖❖ وكلٌّ بعِشْرتهِ مُبلسُ

لَئنْ رجعتْ عنكَ أجسامُنا ❖❖❖ لقدْ سافرتْ معكَ الأنفسُ

ولعلكَ تستغربُ من هذه المشاعر والعواطف، لكن الذي فجّرها ما يتميّز به الناس في "مصر" من عاطفةٍ جيّاشة وودٍ متدفّق.

ووصلتُ بك إلى ختام هذه الحلقة..